شخصية الرشيد

على ضوء علم النفس الحديث

للاستاذ أنور الجندى

يقف « هارون الرشيد » على رأس القمة التى بلغتها الدولة العباسية ، بل التى بلغتها تاريخ الإمبراطورية الإسلامية كلها ..، هذا المجد الذى لم يلبث طويلا بعد ذلك ، والذى كان خلال عهد المأمون امتدادا للدفعة القوية التى بلغتها الملك فى عهد الرشيد . وحسبك بالخليفة الذى روى عنه أنه قال للسحابة المارة « أمطرى حيث شئت فسيأتينى خراجك »

اختلف المؤرخون حول الرشيد اختلافا شديدا ، فذهب بعضهم إلى أنه كان يصلى مائة ركعة كل يوم ، وأنه كان يتصدق بمائة ألف درهم ؛ وأنه كان يحج عاما ويغزو عاما .. وذهب البعض الآخر إلى القول بأن قصره كان صورة صحيحة لقصص « ألف ليلة » ، وأنه كان مرحا طروبا يقيم مجالس الغناء والأنس تنتظمها أكواب الراح ، وأنه كان يقضى غالب وقته بين الغناء والموسيق ، والمغنيات والقيان

على أنه ليس من الغريب أن يجمع الرشيد بين الصورتين المتباعدتين اللتين يجمعهما دلاله الشخصى القوى الحيوية ، الدافق الشباب ، البالغ الفتوة

وليس على الرشيد من بأس على ضوء طبعه هذا من أن يعيش هاتين الحياتين معا ، ويمزجهما على نحو من الاعتدال فهما ؛ قريبان جدا ، يلتقيان دائما ، إذا بعدت عنهما مبالغات القصاص وأحاجى الرواة

وليس على الرشيد من ضير أن يعقد مجالسه فيستمع إلى الشعر والغناء والموسيق ..، ولا يمنعه ذلك من أن يصلى فى مائة ركعة ؛ وأن يمضى إلى الحج عاما والغزو عاما

.. وكل وقائع حياة الرشيد الصحيحة التى بين أيدينا ، تدل على أنه أمضى حياة جادة كل الجد فقد حفلت حياته القصيرة بالغزو والجهاد ، فما كان ينتهى من غزاة حتى يفتتح أخرى ،.. كذلك كان منذ شبابه الغض إلى اليوم الأخير من حياته

وأبرز ظاهر حياته أنه رجل حرب وقتال ، أشربت روحه بالجهاد وقيادة الجيوش ونضال العدو ، وكانت أغلب غزواته فى أرض الدولة البيزنطية ، فلما ولى الملك نظم الشواتى والصوائف وحرص على إرسالها ، ثم خرج بنفسه إلى قتال الروم بعد أن نقضوا المعاهدة ، ومنعوا الجزية

وقد كان حفيا بمغالبة الخصوم والأعداء ، لا يهدأ ولا يستريح إلا النصر يكسبه من وراء نصر ، فلا يلبث أن ينتهى من صراع الأعداء على حدود الدولة البيزنطية حتى يعاود الصراع مع العلويين الذين يظهرون هنا أو هناك محاولين الفتنة أو منازعين على الملك ، ... وهو فى هذا كله صلب العزيمة ، قوى العود ، على غاية من البسالة والحيوية ..، وهى صفات لا تجعل صاحبها يحال فى صف المقطعين للهو أو العاكفين على الهوى ..

وفى هذا يقول الشاعر :

ومن يطلب لقاءك أو يرده ... فى الحرمين أو أقصى الثغور

وكرامة ؛ ولا يتخذون منه ستارا للدعابة ، ولكن يتخذونه درعا للكفاح فى سبيل الحق والاستعلاء

أما دور الملن الذى يعلن بالاسلام فى هذه الأيام ؛ وأما المتجرون بالدين فى ربوع الشرق الأوسط ، وأما الذين يسترزقون من اللعب به على طريقة الحواة ، أما هؤلاء جميعا فهم الزبد الذى يذهب جفاء عندما يأخذ الله طريقه ، وسيأخذ الله طريقه سريعا ، أسرع مما يظن الكثيرون ، إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا . « وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم . وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم . وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا . يعبدوننى لا يشركون بى شيئا » ... صدق الله العظيم

٣٨ . ٥٢ سيد قطب

وقد بدت هذه النفسية المصارعة الجارفة . . على أوضح صورها وأقواها حين استبان له غدر البرامكة . . فصرعهم فى ليلة واحدة ، على أسلوب غاية فى الجرأة والحسم والبتر ، ولم يقبل فيهم شفاعة ، حتى شفاعة ظئره التى أرضعته وربته .. وكانت عنده فى مقدمة الشافعين المشفعين

وليس شك أن هذا التصرف الجرئ بالنسبة للبرامكة . . بعد أن أطلق أيديهم فى أمور الملك سبعة عشر عاما، حتى بلغوا مكانا عاليا ، واستطار اسمهم ، وعلا صيتهم . . وفى الوقت الذى كان يعلم أنهم هم الذين أوصلوه إلى الملك ومكنوا له منه ، لدليل أكيد على قوة نفسية الرشيد ، قوة تزرى بما عرف عن جده المنصور.. وإن ظلت نفس الرشيد تحتفظ بطابعها الخالص من السماحة والرقة واللين والمرح والاشراق

. . . وآية ذلك الذى نذهب إليه فى نفسية الرشيد ، أنه فى رحلته الأخيرة إلى خراسان ، حمل إليه أحد الخوارج ، وكان فى أشد حالات المرض ، وفى سكرات الموت ، فأمرهم بقتله أمامه ، وظل يملأ نظره من دمه المهدر ، وهو مسجى على وشك أن يبلغ الأجل من علته ..

وكان الرشيد خلال حياته التى لم تتجاوز الخامسة والأربعين، حامل لواء الحضارة الاسلامية فى الشرق — بالإضافة إلى منصبه كخليفة للامبراطورية — ، فقد احتضن الثقافة والفن ، وشجع رجال الشعر والموسيقى والغناء .. وأفسح لهم ومكنهم من الابتكار والتجديد والإبداع ، وعنى بالتأليف ، وأمان الفقهاء ، وفتح لهم أبواب البحث والقضاء ، وعقد لهم مجالس البحث والمساجلة والمناقشة فى مختلف المسائل

.. واتصل بعميد الغرب فى عهده ، شارلمان ملك فرنسا وجرمانيا وإيطاليا .. وأرسل إليه وفداً .. وأهدى إليه مفاتيح بيت المقدس ، علامة على الود بين الغرب والشرق ، وبين الاسلام والمسيحية

* * *

ثلاث نجوم : كانت تدور فى فلك الرشيد ، أمه الخيزران ، وزوجه زبيدة ، ووزيره جعفر

أما الخيزران فقد كرهت الهادى ، لأنه كان يصرفها عما تبغى من مظاهر السلطة والنفوذ ، وأما لرشيد فقد أباح لها ما تشاء منه ، وإليها يرجع بعض الفضل فى أن يقفز إلى الخلافة، قبل أن يجئ دوره فى ترتيب الوراثة وولاية العهد

وأما زبيدة فزوجه الأولى ، التى كان يؤثرها على كل زوجاته وسراريه وجواريه ، وهى أم الأمين ، وكانت ذات رأى وتدبير، فكان الرشيد لايرى بدا من أن يأخذ بمشورتها ، وأن يطلق يدها فى إنشاء القصور وتعمير المساجد وحفر العيون المعروفة باسمها ..

وأما جعفر فكان محببا إلى نفسه غاية الحب ، حتى لقد روى بعض المؤرخين أنهما كانا يدخلان فى ثوب واحد ، وهو إن قيل على أنه ضرب من المجاز ، يصور مدى ما كان بينهما من الحب الصادق والود الأكيد

وروى أن جعفر تصرف باسم الرشيد فى أمور غاية فى الدقة فأقره الرشيد وقبل منه ورضى عنه ، ولم يمنع هذا جعفرا من أن يقع به ما وقع عندما قضى فيه الرشيد بأمره

وتلك شمائل من شمائل الرجل الفذ ، تثبت فى وضوح قوة عارضته ؛ ولو كان كما روى عنه من الاسراف فى الترف لما استطاع أن يحسم أمره بالقوة والبراعة والحكمة فى الوقت المناسب

فإذا أخذ عليه بعد ذلك أمر ، فهو أنه بايع للأمين بولاية العهد والمأمون بخراسان والقاسم بولاية العهد بعد المأمون .. فى عقد واحد ؛ وكان هذا الذى فعل الرشيد بعيد الأثر من بعده، وهذا خطأ من أخطاء العاطفة المتحمسة، والعقل الراغب فى حسم الأمور ، الذى يظن أنها تنقاد من بعده وفق سلطانه.. وإرادته

وهو أشبه بما قيل من رضائه عن صداقة جعفر والعباسة ، وجمعهما فى حضرته وإنفاذ أمره بزواجهما ، دون أن يلتقيا كما يلتقى الأزواج ..

فإذا صح مذهبنا إليه من أمر الرشيد الذى عاش حياته مقسما بين الحرب والحج ، ومقاتلة الأعداء والخصوم من الروم، والعلويين، والبرامكة .. ، فلا يمنع هذا الطبع المشبوب بالحماسة والقوة والحيوية ، من أن يرد موارد المتاع بالسمر ومجالس